الفصل الخامس

التليفزيون الدولى

عندما تم اكتشاف امكانيات الموجة القصيرة التى أتاحت لبرامج الراديو أن تنتقل عبر حدود الدول والقارات ، أطلق مارشال ماكلوهن مقولته المشهورة : لقد أصبحت الكرة الأرضية أشبه بالقرية الكونية[١] .

وحين ظهر التليفزيون ، تراجعت مساحة الاتصال الانسانى ، وانعزل المواطن داخل حدود الدولة التى يعيش فيها .

وعندما اكتشف الفيديو تراجع الاتصال الإنسانى أكثر لينحصر المواطن فى بيته وداخل جدران حجرته . . ! ولكن تطور تكنولوجيا الاتصال ، عاد ليؤكد من جديد صحة مقولة ماكلوهن ، بعدما أمكن لبرامج التليفزيون أن تتخطى حدود الدول والقارات مستعينة بامكانيات الكمبيوتر والأقمار الصناعية .

وعادت الكرة الأرضية لتصير قرية كونية واحدة . ولكن فى هذه المرة بالصوت والصورة والألوان الطبيعية . . وبدأ عصر التليفزيون الدولى .

ورغم أن التجارب الأولى لاختراع التليفزيون بدأت منذ عشرينيات هذا القرن ، مستفيدة من التقدم العلمى فى ميادين متعددة ، الا أن أول ارسال تليفزيونى منتظم تحقق فى ١٠ نوفمبر ١٩٣٥م من برج ايفل بباريس . وفى ٢ نوفمبر ١٩٣٦م فى بريطانيا ، أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد تم ذلك فى عام ١٩٣٩ بمناسبة معرض نيويورك الدولى .

ويجىء عام ١٩٥٠م أصبح لخمس دول خدمات تليفزيونية منتظمة ، وارتفع العدد فى عام ١٩٥٥ الى ١٧ دولة وأصبح العدد ٦٠ دولة فى عام ١٩٦٠ وفى عام ١٩٧٠م وجدت أكثر من ١٠٠ دولة تقوم ببث البرامج التليفزيونية ، وفى أوائل الثمانينيات انتشرت الخدمة التليفزيونية فى ١٥٠ دولة حول العالم ، وبلغ عدد أجهزة استقبال التليفزيون حوالى ٤٠٠

مليون جهاز ومن المتوقع أن يكون العدد قد تضاعف مع بداية التسعينيات ، أما البلدان التى يزيد فيها عدد أجهزة التليفزيون عن المليون فقد ارتفعت فى الفترة من عام ١٩٦٠م حتى عام ١٩٧٦م من ١٣ الى ٣٤ دولة من بينها مالا يقل عن تسعة بلاد يوجد بها أكثر من ١٠ ملايين جهاز وأصبح عدد أجهزة التليفزيون فى معظم الدول الصناعية المتقدمة يقارب عدد الأسر فى كل منزل[٢] ، وفى العام ١٩٨٥م وصل عدد البلدان التى يزيد فيها عدد أجهزة التليفزيون عن المليون حوالى ٦٠ دولة ، ومن بينها ١٥ دولة يوجد بها أكثر من خمسة ملايين جهاز و ١٢ دولة يوجد بها أكثر من ثلاثة ملايين جهاز وعشر دول يوجد بها أكثر من خمسة ملايين جهاز و ١٥ دولة يوجد بها أكثر من عشرة ملايين جهاز[٣] .

أما الاستخدام الدولى للتليفزيون فقد بدأ منذ فترة مبكرة من وجود ارسال تليفزيونى منتظم ، فمع بداية الخمسينيات كانت برامج التليفزيون فى العديد من دول غرب اوربا تشاهد عبر الحدود فى الدول الأخرى ، وقد حدثت نفس الظاهرة فى امريكا الشمالية ، فى كل من الولايات المتحدة الامريكية وكندا والمكسيك .

ولكن أول تبادل رسمى منظم للبرامج التليفزيونية بين الدول ، تحقق فى ٢٧ أغسطس ١٩٥٠م بين بريطانيا وفرنسا ، عندما تعاون التليفزيون الفرنسى مع هيئة الاذاعة البريطانية على بث برنامج تليفزيونى لمدة ساعتين من فرنسا الى بريطانيا[٤] ، وفى يوليو ١٩٥٢ وقعت الدولتان اتفاقية لتبادل البرامج التليفزيونية حيث تم بعدها نقل الاحتفالات بتتويج الملكة اليزابيث الثانية فى عام ١٩٥٣م الى فرنسا وعدد آخر من دول غرب أوربا[٥] ، وهو التعاون الذى أثمر بعد ذلك اقامة الشبكة الدولية للتليفزيون Eurovision والتى تضم الى جانب بريطانيا وفرنسا عددا آخر من دول غرب أوربا ومنها المانيا الاتحادية وايطاليا والنمسا[٦] .

وفى عام ١٩٥٩م أقامت الدول الاسكندنافية شبكة النوردفزيون Nordvision وهى التى تربط بين محطات التليفزيون فى النرويج والسويد والدانمرك وفنلندا وايسلندا[٧] .

وفى المقابل فقد أقام الاتحاد السوفيتى بالتعاون مع دول شرق أوربا شبكة الانترفزيون Intervision فى عام ١٩٦٠م ، وهى تربط بين محطات التليفزيون فى الاتحاد السوفيتى وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الديمقراطية والمجر وبولندا ورومانيا ومنغوليا[٨] . وفى حالات كثيرة أمكن الربط بين شبكتى اليورفزيون والنوردفزيون لبث الأحداث العالمية الهامة . وفى بعض الحالات تم الربط بين شبكتى اليورفزيون والأنترفزيون لبث الأحداث التى تهم الجمهور فى كل من دول غرب أوربا وشرقها ، ومن ذلك احتفال السوفيت باستقبال رائد الفضاء السوفيتى جاجارين فى موسكو عام ١٩٦١م .

وقبل ذلك بعامين أمكن تحقيق أول ربط بين غرب أوربا وامريكا الشمالية ففى عام ١٩٥٩م تم نقل صورة تليفزيونية من أوربا الى الولايات المتحدة الامريكية عبر كابلات تليفزيونية فى المحيط الاطلسى ، الا أن نقل الأحداث اثناء وقوعها عبر المحيطات والمسافات الشاسعة لم يتحقق الا بعد اطلاق أقمار الاتصال الصناعية Communication Satelies وهى عبارة عن محطات فضائية تدور حول الأرض عليها محطات استقبال وارسال لتلتقط الرسائل من المحطات الأرضية وتعيد ارسالها الى محطات أخرى .

وقد بدأ المعسكر الغربى تجاربه لاطلاق الأقمار الصناعية فى عام ١٩٦٠م عندما استخدم سلاح البحرية الأمريكية القمر الطبيعى كمحطة توسط لارسال الاشارات والصور بين مدينة واشنطن وجزيرة هاواى . وفى عام ١٩٦٢م أطلقت الولايات المتحدة أول قمر صناعى للاتصالات

الفضائية وهو قمر Telstar وعن طريقه تحقق نقل أول برامج تليفزيونية بين الولايات المتحدة وشبكة اليورفيزيون ، وفى عام ١٩٦٤م تكونت الرابطة الدولية لاقمار الاتصال The International Tele Communica-tions Satellite Consortium. والمعروفة باسم انتلسات Intelsat وضمت ١٢ دولة ، وأطلقت الرابطة أول قمر صناعى لها باسم «Early Bird» فى عام ١٩٦٥م واستمر العمل به لمدة عام[٩] ثم أطلقت الرابطة بعد ذلك عدة أجيال من الأقمار الصناعية باسم Intelsat والرابطة تضم الآن أكثر من مائة دولة وتغطى أقمار الانتلسات كافة أنحاء الكرة الأرضية وتخدم ٨٠ محطة أرضية فى ٦٠ دولة .

أما تجارب المعسكر الشرقى فى مجال اطلاق الأقمار الصناعية ، فقد بدأت فى عام ١٩٦٠ عندما تمكن السوفيت من نقل صور حية لرائد الفضاء الكس ليونيف عن مركبة الفضاء Vostock 2 وفى عام ١٩٦٥م أطلق الاتحاد السوفيتى أول قمر صناعى باسم مولنيا Molniya والذى مكن من الربط بين الاتحاد السوفيتى ودول شرق اوربا وكوبا ومنغوليا ، وفتحت عضويته لكافة الدول ، وهو يشمل أقمارا صناعية تدور حول الأرض كل ١٢ ساعة . متخذة مسارا مرتفعا قوسى الشكل فوق نصف الكرة الشمالى ويخدم ٤٠ محطة أرضية ، ولقد أنشىء هذا النظام لمد خدمات الارسال التليفزيونى الى المناطق النائية فى سيبريا وآسيا الوسطى التى كان يمكن الوصول اليها بالشبكات الأرضية بصعوبة بالغة وبتكاليف باهظة ، وقد أصبح بالامكان عند ارتباط شبكتى الأنترسبوتنك تغطية جميع أنحاء العالم بالارسال التليفزيونى .

وقد أتاح التطور التكنولوجى الآن امكانية إرسال البرامج التليفزيونية مباشرة الى أجهزة الاستقبال عن طريق الاستعانة بهوائيات خاصة . ولم يعد البث من الاقمار الصناعية يتطلب وجود محطات الاستقبال الأرضية ،

وبذلك أصبح ايجاد نظم تستخدم الأقمار الصناعية التى بمقدورها أن تبث البرامج التليفزيونية لأجهزة الاستقبال فى البيوت ، وفى نفس اللحظة فى جميع أنحاء العالم[١٠] .

ان ثلاثة أقمار صناعية على مسافة ٢٢,٣ ميل فوق الأرض يمكنها الآن أن تغطى الكرة الأرضية بأسرها .

- ١ -
التبادل الدولى لبرامج التليفزيون

لقد أدى انتشار التليفزيون فى معظم دول العالم ، وفى فترة قصيرة نسبيا الى ضرورة تبادل البرامج التليفزيونية بين الدول ، فان غالبية دول العالم لابد أن تستورد نسبة ما من البرامج التليفزيونية لكى تملأ بها ساعات الارسال ، بل يمكن القول أنه لا توجد دولة فى العالم لا تستورد قدرا ما من البرامج التليفزيونية بما فى ذلك الدول المتقدمة فى الفن التليفزيونى ، وعلى سبيل المثال فان الولايات المتحدة الأمريكية وهى الدولة الأكثر تقدما فى انتاج البرامج التليفزيونية فى العالم ، إلا أنها تستورد حوالى ٢٪ من العدد الاجمالى للبرامج التى تذيعها محطات التليفزيون الأمريكية التجارية وغير التجارية ، ويأتى الجزء الأكبر من البرامج التى تستوردها الولايات المتحدة من بريطانيا ، ويأتى البعض الآخر من كندا واليابان وفرنسا وألمانيا الاتحادية ، كما أنها تستورد أيضا بعض البرامج والأفلام من الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا وخاصة البرامج الموسيقية والأفلام الكلاسيكية غير المشوبه بالمسحة الأيدلوجية أو الدعائية .

أما دول غرب أوربا ، وهى أيضا من الدول الأكثر تقدما فى الفن التليفزيونى فانها تستورد ما بين ١٠٪ و٣٠٪ من برامجها التليفزيونية من دول أخرى ، باستثناء فنلندا التى تستورد ٤٠٪ وايرلندا ٥٠٪ وايسلندا ٦٠٪ ، وتعد الولايات المتحدة أكبر مصدر للبرامج لدول غرب أوربا مسجلة فى المتوسط ٥٠٪ تليها بريطانيا ثم فرنسا. وايطاليا وأسبانيا ، وتتبادل دول غرب أوربا بانتظام وبمقادير متزايدة فقرات الأخبار والبرامج من خلال شبكة اليورفزيون Eurovision التى يشرف عليها اتحاد الاذاعات الأوربية (E.B.U.) أما الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا فهى تتبادل البرامج من خلال شبكة الانترفزيون Itervision والتى تشرف عليها

الهيئة الدولية للاذاعة والتليفزيون (Dirt) كما يتم التبادل بين الدول الخمس الاسكندنافية من خلال شبكة تليفزيون الشمال Nordivison[١١] ويلاحظ أن هذا اللون من التبادل الدولى لبرامج التليفزيون لا يشكل أخطارا سياسية أو اجتماعية أو ثقافية بالنسبة للدول المشتركة فى هذا التبادل ، رغم تميز احدى الدول بلعب دور المركز الرئيسى فى الانتاج والتصدير ، مثل الولايات المتحدة بالنسبة لدول غرب أوربا ، وذلك بسبب تشابه الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية داخل كل مجموعة ، فضلا عن أن كل منها يجمعها نظام سياسى واجتماعى وثقافى واحد تقريبا .

وهناك لون آخر من التبادل الدولى التليفزيونى وهو الذى يجرى بين الدول المتقدمة والدول النامية ، ويلاحظ أنه تبادل من جانب واحد ، فالكم الأكبر من البرامج التليفزيونية يذهب من الدول المتقدمة الى الدول النامية ، ومن النادر أن يحدث العكس أى أن تعرض الدول المتقدمة برامج تم انتاجها فى الدول النامية ، ويوما بعد يوم يتعاظم حجم المواد التليفزيونية المستوردة فى الدول النامية كلما زادت ساعات الارسال فى الدول التى بها خدمات تليفزيونية ، وكلما دخلت الخدمة التليفزيونية الى دول جديدة .

إن الدول النامية تجد نفسها بعد انتشار الخدمات التليفزيونية مضطرة الى استيراد البرامج الأجنبية لملء ساعات الارسال بها ، وذلك بسبب قلة خبرة هذه الدول بالانتاج التليفزيونى وعدم جودته بالمقارنة بما تنتجه الدول الأكثر قدما وتقدما فى مجال الانتاج التليفزيونى ، بل ان مغريات استيراد البرامج الأجنبية أكبر بكثير من الدافع الى انتاجها محليا ، ليس فقط بسبب قلة الخبرة والجودة ، وانما لأن استيراد البرامج الأجنبية أقل تكلفة من انتاجها محليا .

وهناك جانب آخر ، وهو تاريخى يعمق من تبعية الدول النامية برامجيا للدول المتقدمة ، فالدول النامية تعتمد وبشكل يكاد يكون كاملا على صناعات ذات مكونات أجنبية فى انتاجها التليفزيونى ، ذلك أن معظم الشركات التى تقوم بتصنيع الأجهزة اللازمة للانتاج والارسال والاستقبال تنتمى الى الدول الصناعية المتقدمة ، وتوجد ١٥ شركة غربية تسيطر بطرق مختلفة على الجزء الأكبر من عمليات صناعة التليفزيون وتتخذ لها مقرا فى خمس دول وهى الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الاتحادية وهولندا واليابان وفرنسا[١٢] فى حين كان الاتحاد السوفيتى يكاد يحتكر هذا الانتاج فى دول المعسكر الشرقى ، وقد حدث فى الخمسينيات والستينيات أن قامت الدول الصناعية الكبرى بتزويد الدول النامية بالمعدات والخبرة اللازمة لانشاء الخدمات التليفزيونية ، وكان من الطبيعى أن تتبع ذلك بتصدير البرامج اللازمة لاستمرار هذه الخدمة ، وقامت بعض الدول الكبرى بمساعدة بعض الدول النامية التى لم يكن فى مقدورها الوفاء بنفقات اقامة الشبكات التليفزيونية ، وتنافست فى هذا المجال العديد من الشركات الكبرى المتعددة الجنسية ، مثل تومسون الدولية للتليفزيون TTT ومشروعات التليفزيون الدولية TIE ومكتب التعاون الاذاعى CRA فى باريس الذى اندمج مع اتحاد الاذاعة والتليفزيون الفرنسى O R T F وهيئة الاذاعة الوطنية العالمية NBC International والشركة الدولية للراديو والتليفزيون RTV وتقدم هذه الشركات للدول النامية محطات تليفزيونية كاملة وخبرة ادارية ودورات تدريبية فى البرامج والاعلان للعاملين المحليين ، وفى أوائل الستينيات زودت شركة RCA الأمريكية محطات التليفزيون المصرية والسورية بالمعدات اللازمة ، وأوفدت الى كل منهما خبيرا أمريكيا كان من الطبيعى أن ينصح باستيراد البرامج الأمريكية ، وقامت احدى الشركات البريطانية بادخال

التليفزيون الى العراق وقامت بعد ذلك ببيع أجهزة الاستقبال وتلتها بتصدير البرامج (١٣) أما فرنسا فإنها لا تكتفى بمساعدة الدول المتحدثة بالفرنسية فى آسيا وأفريقيا فى ادخال الخدمة التليفزيونية ، وانما تقدم بعض البرامج مجانا .

- ٢ -
سيطرة الدول المتقدمة على سوق التبادل الدولى لبرامج التليفزيون

إن التليفزيون يلخص أكثر من أى وسيلة اعلامية أخرى أوجه التقدم الذى أحرزته وسائل الاتصال فى ربع القرن الأخير ، لذلك كان من الطبيعى أن تحقق الدول المتقدمة سبقا بعيدا فى مجال الانتاج التليفزيونى ، وهو الأمر الذى مكنها من السيطرة شبه الكاملة على سوق التبادل الدولى لبرامج التليفزيون .

ومما لا شك فيه أن الولايات المتحدة الأمريكية تملك أكبر عدد فى العالم من شركات الانتاج التليفزيونى ومن أجهزة الارسال والاستقبال ، وهى بالتالى أكبر مصدر لبرامج التليفزيون فى جميع دول العالم باستثناء الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا وكوبا والصين . فالولايات المتحدة الأمريكية تملك حوالى ٩١٥ محطة تليفزيون و ٣٠٠٠ جهاز ارسال وبها حوالى ١٠٠ مليون جهاز استقبال فى ٦٥ مليون منزل ، وتمتلك المؤسسات التجارية بها حوالى ٧٠٠ محطة تليفزيون منها ٢٠٠ محطة تملكها الصحف والمجلات (١٤) ومنذ الستينيات أحرزت الولايات المتحدة تفوقا على كافة دول العالم فى مجال تصدير البرامج التليفزيونية بنسبة ٢ : ١ وقد بلغ اجمالى المبيعات الأجنبية من البرامج التليفزيونية الأمريكية حوالى مائتى ألف ساعة فى السنة ، وتصدر ثلث هذه الكمية الى دول أمريكا اللاتينية ، ويصدر الثلث الثانى الى دول الشرق الأقصى وشرق آسيا أما الباقى فيصدر الى غرب أوربا وشرق آسيا ومنطقة الشرق الأوسط وأفريقيا .

وتوزع خدمات ومنتجات شبكة كولمبيا للاذاعة CBS فى مائة دولة فى خلال ٢٧ شركة فرعية فيما وراء البحار ولديها استثمارات فى ثلاث دول فى أمريكا اللاتينية تتمثل فى محطات برورتيل Proartel فى الأرجنتين

وبروفنتيل Prvoentel فى فنزويلا وبانتيل Pantel فى بيرو ، أما شبكة التليفزيون الأمريكية التابعة لشركة الاذاعة الأمريكية AB والمسماه ورلدفيزيون Worldvision فهى تصدر برامجها الى ٦٠ دولة ولها استثمارات فى عمليات التليفزيون فى كندا وجوانتيمالا والسلفادور وهندوراس وكوستاريكا وبنما وكولومبيا وفنزويلا واكوادور والأرجنتين ولبنان واليابان والفلبين وشيلى وبرمودا واستراليا .

أما الشركة الوطنية للاذاعة NBC والتى تعتبر امتدادا لشركة الالكترونات RCA فهى تصدر برامجها الى مائة وخمس عشرة دولة وتقوم بانتاج وتوزيع ١٢٥ مسلسلا تليفزيونيا لتذاع فى نفس الوقت فى ٣٠٠ محطة تليفزيونية فى ٨٣ دولة ، كما أنها تساهم بحصة فى محطتى التليفزيون بالمكسيك ، ومحطة اذاعة وتليفزيون فى كاركاس عاصمة فنزويلا ، وهى تعتبر واحدة من أهم حملة الأسهم فى شركة الاتصالات بالأقمار الصناعية Comsal لذلك فهى تقوم بدور فعال فى الهيئة الدولية لاتصالات الفضاء Intelsat (١٥) .

وتحتل بريطانيا المركز الثانى فى تصدير البرامج التليفزيونية ، حيث تبيع لمختلف دول العالم حوالى ٥٠ ألف ساعة من البرامج سنويا تحصل دول الكومنولث على ٢٠٪ من هذه البرامج بينما تحصل الولايات المتحدة الأمريكية ودول غرب أوربا على ١٢٪ والباقى يصدر لدول العالم الثالث فى آسيا وأفريقيا والأمريكتين (١٦) .

وتصدر فرنسا حوالى ٣٠ الف ساعة برامجية فى السنة وتحتل بذلك المركز الثالث فى تصدير برامج التليفزيون بين دول المعسكر الأوربى ، وهى تبيع برامجها الى ٨٥ دولة ، فى حين تقدم البرامج الى عدد من الدول بدون مقابل وخاصة الدول التى تتحدث الفرنسية فى أفريقيا وبعض

الدول النامية الأخرى التى لها علاقات وروابط وثيقة مع فرنسا ، وتستورد افريقيا السوداء ٣٠٪ من البرامج الفرنسية ، فى حين تستورد دول شمال افريقيا العربية وحدها ١٠٪ من البرامج الفرنسية (١٧) .

ومن الدول الغربية المصدرة للبرامج التليفزيونية تحتل كل من المانيا الاتحادية ، وايطاليا وهولندا وأسبانيا مكانا متميزا فى هذا المجال ، حيث تصدر المانيا الاتحادية حوالى خمسة آلاف ساعة سنويا وتصدر ايطاليا حوالى اربعة آلاف ساعة وكذلك أسبانيا وهولندا ، وأغلبها يوجه الى الدول الاوربية الأخرى وامريكا الشمالية وامريكا الجنوبية والشرق الأقصى والشرق الأوسط وعدد من الدول الأفريقية (١٨) .

أما اليابان فهى تصدر ثلاثة الاف ساعة سنويا الى الدول الاسيوية (١٩) ولكن مشكلة اللغة تحد من تطور الصادرات اليابانية رغم أن صادراتها من أجهزة التليفزيون تكاد تغطى كافة أنحاء العالم .

أما فى المعسكر الشرقى فان الاتحاد السوفيتى كان يحتكر انتاج وتصدير البرامج التليفزيونية الى دول شرق أوربا وكوبا ودول العالم الثالث التى تخضع للنفوذ السوفيتى ، وتستورد دول شرق أوربا ما بين ٣٠٪ و ٤٠٪ من برامجها من الاتحاد السوفيتى (٢٠) .

واذا انتقلنا الى الدول النامية فسوف نكتشف ان المعادلة معكوسة ، اذ هى تستورد البرامج التليفزيونية ولا تصدر من انتاجها شيئا للدول المتقدمة ، فان أفريقيا مثلا تستورد دولها ما بين ٤٠٪ الى ٦٠٪ من برامجها من الخارج ، والباقى تعتمد فيه على الانتاج المحلى ، ان زامبيا ونيجيريا وغانا وأوغندا تستورد نصف برامجها ، وتستورد دول الشمال الأفريقى ٤٥٪ من برامجها ، أما الصومال والسنغال وغينيا فهى تستورد ٦٠٪ من برامجها ، فى حين تستورد الكونغو وكينيا ومالى حوالى ٩٠٪ من برامجها ، وتستورد مصر ٢٠٪ من برامجها .

وتشكل البرامج الأمريكية نسبة تتراوح ما بين ٣٠٪ و ٧٠٪ من البرامج المستوردة فى دول افريقيا فى حين تمثل البرامج البريطانية حوالى ٢٠٪ والبرامج الفرنسية ١٥٪ و ٥٪ من بقية الدول الأخرى ومن بينها الاتحاد السوفيتى .

أما آسيا فتتراوح النسبة المئوية للبرامج المستوردة ما بين ٣٠٪ و ٧٠٪ باستثناء الصين الشعبية والهند واليابان الذين يعتمدون على الانتاج المحلى ، ان ماليزيا وسنغافورة ونيوزيلنده تستورد ثلاثة أرباع برامجها تقريبا ، أما كوريا الجنوبية فتستورد ٩٠٪ من برامجها وتستورد الفلبين ثلثى برامجها [٢١] وفى غرب آسيا تبلغ نسبة الواردات ٥٠٪ من إجمالى البرامج ، وفى حدود هذه النسب يأتى أكثر من نصف البرامج المستوردة من الولايات المتحدة الامريكية [٢٢] وفى الأمريكتين تتراوح نسبة البرامج المستوردة ما بين ٤٠٪ الى ٨٠٪ ، وتستورد حوالى ٥٠٪ الى ٦٠٪ من هذه البرامج من الولايات المتحدة الأمريكية وحوالى ٣٠٪ من الدول المتحدثة بالأسبانية وهى المكسيك والأرجنتين و١٠٪ من اوربا الغربية وخاصة اسبانيا وايطاليا وفرنسا [٢٣] ففى الأرجواى نجد أن ثلث البرامج مستوردة وأكثر من ٦٠٪ منها يأتى من الولايات المتحدة الأمريكية ، أما شيلى والدومينيكان فان كل منهما تستورد نصف برامجها ، وتبلغ نسبة البرامج الأمريكية فيها حوالى ٦٦٪ ، أما الأرجنتين وكولومبيا والمكسيك فتستورد ثلث برامجها من الخارج ، ٨٠٪ منها يأتى من الولايات المتحدة الامريكية ، وتستورد جواتيمالا أكثر من ٨٠٪ من برامجها تبلغ نسبة البرامج الأمريكية فيها أكثر من النصف ، وتستورد بيرو ثلثى برامجها فى حين تصل النسبة فى كوستاريكا الى ٨٠٪ وفى الاكوادور ٧٣٪ ويبلغ نصيب البرامج الأمريكية فيها حوالى ٦٠٪ .

أما كوبا فهى لا تستورد سوى ٢٠٪ من برامجها وأغلبها يأتى من الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا ، اما الباقى فتعتمد فيه على الانتاج المحلى [٢٤] .

- ٣ -
مخاطر سيطرة الدول المتقدمة
على برامج التليفزيون الدولى

ان سيطرة الدول الصناعية المتقدمة على سوق التبادل الدولى لبرامج التليفزيون يثير العديد من المخاطر والقضايا والمخاوف لدى العديد من الدول النامية ، ذلك أن نسبة كبيرة من البرامج التليفزيونية المتداولة دوليا ، تقدم كسلعة تجارية يتم تسويقها وبيعها كأى سلعة تجارية ، وقد نتج عن ذلك سيطرة النزعة الاستهلاكية فى المجتمعات الغربية المتقدمة ، ومعيار نجاح الانتاج التليفزيونى هو حجم المبيعات والأرباح التى يحققها هذا الأنتاج ، لذلك فقد غلب على الانتاج التليفزيونى الجانب الترفيهى الذى يروق لأكبر عدد من المشاهدين ، وبالتالى تجتذب أكبر كمية من الاعلانات ، وانتشار هذا النوع من الانتاج التليفزيونى لا يخشى منه فقط على هيمنة الدول المتقدمة واضعافها للثقافات الوطنية فى المجتمعات النامية ، وانما من شأنه ان يدمر جوهر هذه الثقافات فى الوقت نفسه ، وعلى سبيل المثال فان برامج التليفزيون الامريكى أصبحت هى التى تحدد اسلوب انتاج البرامج فى العالم بأسره ، مثلما كانت هوليود بالنسبة لصناعة السينما منذ ٤٠ عاما (٢٥) .

ان ثلاثة أرباع البرامج التى تصدرها الولايات المتحدة الأمريكية وثلثى البرامج التى تصدرها دول غرب أوربا من البرامج الترفيهية ، ومن المهم ان نشير الى ان عددا كبيرا من الدول تقبل على استيراد هذه النوعية من البرامج الترفيهية ، لصعوبة انتاجها محليا وارتفاع تكاليفها ، كما أن هناك تصورا بأنها أقل البرامج تأثرا بالدعاية السياسية ، كما أن الحل الأمثل عند كثير من الدول النامية لمشكلة شغل أوقات الارسال بتكلفة بسيطة هو المسلسل الأمريكى ، وذلك لرخص ثمنه وسهولة الحصول عليه ، ويمكن لكبار مصدرى البرامج أن يزودوا الدول النامية بالبرامج بثمن بخس نظرا

لأن السوق المحلى وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية يغطى نفقات الانتاج [٢٦] .

ومن المظاهر الايجابية التى برزت فى السنوات القليلة الماضية ، ارتفاع أصوات عديدة فى المجتمعات المتقدمة نفسها تعترض على النوعية الهابطة لبرامج التليفزيون ، وقد سجلت العديد من الاستفتاءات التى أجريت فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى بعض دول غرب أوربا عدم رضاء نسب متزايدة من المشاهدين عن برامج التليفزيون ، وتشير أرقام هذه الاستفتاءات أن ١٢٪ من المشاهدين فى الولايات المتحدة غير راضين عما يقدم من برامج فى محطات التليفزيون الأمريكى ، وأن هناك ٥٣٪ من المشاهدين قلت نسبة مشاهدتهم لبرامج التليفزيون عما كانت عليه من قبل ، وفى بريطانيا تبين أن نسبة المشاهدة الى برامج التليفزيون قد انخفضت بمقدار ٢٧ نقطة طبقا لبيان ترتيب التقديرات ، كذلك أعرب ٥٤٪ من مشاهدى التليفزيون الفرنسى عن عدم رضائهم عنه [٢٧] .

ويشكل محتوى البرامج التليفزيونية الدولية إشكالية أخرى للعديد من الدول ، فغالبا ما تستخدم البرامج التليفزيونية لتحقيق الاستراتيجيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للدول الكبرى التى تنتج وتصدر هذه البرامج ، وغالبا ما تشكل هذه البرامج مراكز متقدمة داخل حدود الدول النامية يمكن للدول الكبرى من خلالها أن تمارس نفوذها وتروج لأفكارها وسياساتها ولأساليبها فى الحياة ، وقد صرح ولسون دزارد ، وهو مسئول سابق بالوكالة الأمريكية للاستعلامات أمام لجنة تابعة للكونجرس ، أن كمية الصادرات من الأفلام التليفزيونية بلغت من الضخامة بحيث ان شاشة التليفزيون فى العديد من البلدان أصبحت المصدر الرئيسى لعرض الصورة الأمريكية وأسلوب الحياة الامريكى لملايين متزايدة من المشاهدين فى هذه البلدان [٢٨] .

ومن ناحية أخرى فصورة أحداث العالم كما تنقل الى الدول النامية ، وصورة الحياة فى الدول النامية كما تقدم للمشاهدين فى أوربا وأمريكا ، تتعرضان للتشويه والتحيز ، ويقول تقرير لاحدى لجان الكونجرس الأمريكى ، ان الولايات المتحدة تستطيع ان تحقق اهداف سياستها الخارجية ومصالحها الدولية من خلال التعامل مع شعوب الدول الاجنبية بدلا من التعامل مع حكوماتها ، فمن خلال وسائل الاتصال الحديثة وفى مقدمتها التليفزيون يمكن ان نصل اليوم الى قطاعات مؤثرة من السكان فى هذه البلدان ، وان نقوم باعلامهم والتأثير فيهم وتغيير اتجاهاتهم بل يمكن فى بعض الأحيان أن نحرضهم على سلوك طريق عمل معين ، وهذه المجموعات يمكن بدورها أن تمارس ضغوطا ملحوظة وحتى حاسمة على حكوماتها (٢٩) .

ومن الأمثلة على مقدار الضرر الذى يمكن أن تحققه بعض برامج التليفزيون الدولى ، سلسلة الأفلام التليفزيونية التى عرضتها القناة الثانية لهيئة التليفزيون البريطانى والتى أخرجها المخرج الفرنسى لويس مالى عن الهند ، فقد أثارت هذه السلسلة احتجاجات شديدة من جانب الهنود وغيرهم نظرا لمضمونها الذى انطوى على تحيز وعدائية بالغين (٣٠) .

وفى امريكا الجنوبية أجرى تحت اشراف اليونسكو بحثا ميدانيا عن التلوث الثقافى فى فنزويلا ، أوضح ان المثل الاعلى للبطولة بالنسبة للطفل الفنزويلى كان يتمثل فى شخصية امريكية فى ٨٦,٣٪ من الحالات ، فى حين لم تتجاوز نسبة الاطفال الذين تمثلوا شخصية فنزويلية ٧,٩٪ ، وكان هذا المثل الأعلى للبطولة يتحدث الانجليزية فى ٨٢,١٪ من الحالات والأسبانية فى ١٤,٧٪ من الحالات ، وكانت نسبة البطل الأبيض الى البطل الأسود فى مخيلة الاطفال ١١ : ١ ، وكان هذا البطل ثريا فى ٧٢٪ من الحالات التى أجريت عليها الدراسة (٣١) .

ومع تأكيدنا على كافة سلبيات التدفق غير المتوازن لبرامج التليفزيون الدولى ، فلسنا مع الذين يطالبون بمعالجة هذا الوضع عن طريق توقف الدول النامية تماما عن استيراد البرامج التليفزيونية من الدول المتقدمة ، فعوضا عن استحالة تنفيذ هذا الحل ، فانه ضار من ناحية المبدأ ، ذلك أن من شأنه لو تحقق ، اعاقة الاتصال الانسانى عبر المجتمع الدولى ، فهذا الاتصال طالما طمحت اليه البشرية منذ عصورها الأولى ، اعتراضنا يجب أن ينصب فقط على محتوى هذا التبادل غير المتكافىء بين الدول المتقدمة والدول النامية ، وعلاجه يتطلب جهدا دوليا مكثفا للتقليل من هذا الوضع غير العادل عن طريق المساعدة فى انشاء شبكات تليفزيونية اقليمية فى كافة مناطق العالم ، تقوم على التعاون المشترك بين المجموعات المتجانسة من الشعوب اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا ، وان يتم من خلال هذه الشبكات تبادل وتنسيق البرامج التليفزيونية ، وهذا الحل سبقت اليه الدول المتقدمة نفسها [٣٢] عندما أنشأت دول غرب اوربا شبكة اليورفزيون ، ثم أقامت الدول الاسكندنافية شبكة النوردفزيون وأنشأت دول شرق أوربا والاتحاد السوفيتى شبكة الانترفزيون [٣٣] .

وبالرغم من أن العديد من الدول النامية قد أقامت اتحادات للراديو والتليفزيون ، فإن ضعف امكانياتها بالاضافة الى عوامل أخرى كالحساسيات والشكوك المترسبة عبر مراحل تاريخية سابقة ، قد حدت من حجم تبادل البرامج التليفزيونية بين هذه الدول التى تضمها هذه الاتحادات .

ان الدول النامية مطالبة أيضا باتخاذ الاجراءات اللازمة لتنويع مصادر برامجها التليفزيونية بالعمل على زيادة عدد الدول التى تستورد منها برامجها ، وأن تعمل على الاستيراد من الدول النامية التى حققت تقدما فى مجال الانتاج التليفزيونى .

ولكن يبقى أن الحل الأمثل ، وهو أن تعمل كل دولة على تطوير انتاجها التليفزيونى مستفيدة من امكاناتها الذاتية ، قدر الامكان ، مستلهمة ابداعاتها الثقافية الخاصة وقد حققت بعض الدول النامية محاولات ناجحة فى هذا المجال ، فالهند ومصر قد تمكنتا بجهد ذاتى مدعم بتراث تاريخى وثقافى من تحقيق قدر كبير من التقدم فى مجال الانتاج التليفزيونى ، وفر لها شبه اكتفاء ذاتى من البرامج التليفزيونية ، بحيث لا يصل مجموع ما تذيعه محطات التليفزيون فى الهند إلى ١٢٪ من البرامج الاجنبية وتصل النسبة فى مصر إلى حوالى ٢٠٪ فقط . كذلك فقد استطاعت دول الخليج العربية ان تحقق انجازا ملحوظا فى مجال الانتاج البرامجى المشترك ، وخاصة فى مجال برامج الاطفال والأخبار والبرامج التنموية .

- ٤ -
تحديات البث المباشر عبر الاقمار الصناعية

لقد أصبح البث المباشر لبرامج التليفزيون على المستوى الدولى ممكنا بفضل الاقمار الصناعية ، وبامكان المشاهدين الآن فى أى منطقة من العالم التقاط برامج التليفزيون التى تبث من خلال الاقمار الصناعية بدون حاجة الى المرور بالمحطات الأرضية ، وعن طريق الاستعانة فقط بهوائى معين أصبح متوافرا من الناحية التقنية، ورغم أن بعض الدول تمنع دخول هذا الهوائى أو تحول دون تصنيعه فى الداخل وخاصة فى الدول النامية ، فهو وضع مؤقت ، فضلا عن أنه من المتوقع ان تشهد السنوات القادمة انتاج أجهزة استقبال تليفزيونية مجهزة لالتقاط ارسال القمر الصناعى مباشرة دون حاجة الى مرور هذا الارسال بالمحطات الارضية ، ودون حاجة ايضا الى استخدام ذلك الهوائى الخاص وحينئذ لن يكون من الصعب تسرب هذه الأجهزة الى العديد من الدول التى تمنع استيراد الهوائى أو تحول دون تصنيعه ، والأهم من ذلك أن التجربة تؤكد ان التكنولوجيا الحديثة تنتشر بأسرع مما نتصوره ، وان ما يمنع منها اليوم ، سوف يسمح به غدا ، عندما تتأكد الحكومات والشعوب من حجم الفوائد التى يمكن ان تجنيها من هذه المخترعات .

ومما لاشك فيه ان استخدام الاقمار الصناعية فى البث التليفزيونى الدولى من شأنه إحداث طفرة كبرى فى الاتصال والاعلام الدولى يمكن ان تحقق العديد من الفوائد لكافة الدول . وبالنسبة للدول النامية ، فهى لن تحتاج الى إقامة الشبكات الارضية المكلفة اقتصاديا لايصال الخدمة التليفزيونية الى المناطق النائية بها وخاصة فى الدول ذات الارجاء الشاسعة والتضاريس الصعبة ، كذلك فمن الممكن إقامة نظم اقليمية للبث التليفزيونى بين عدد من الدول المتجانسة تتقاسم تكلفتها وتشارك فى الاستفادة من خدماتها .

ولكن البث التليفزيونى المباشر عبر الاقمار الصناعية قد يسفر عن أوجه أخرى قد تثير شكوك وخوف الدول النامية فهناك المخاوف السياسية. التى يمكن ان تنجم عن بث برامج معادية لأنظمة الحكم فى بعض الدول ، أو تصدير الافكار والايديولوجيات التى تهدد الاستقرار فى دول اخرى ، فضلا عن مخاوف لها ما يبررها قد تنجم عن بث افلام ومسلسلات تتبنى قيما وانماطا من السلوك الذى يتنافى مع قيم وتقاليد وعادات العديد من الشعوب فى الدول النامية .

وهناك احتمال ان تعزز الاقمار الصناعية من نماذج التدفق التقليدية فى مجال التليفزيون ، والتى تقوم على سيطرة الدول الصناعية المتقدمة على عمليات التبادل التليفزيونى الدولى ، وهو الأمر الذى يهدد بسيطرة ثقافة واحدة على المستوى الدولى ، مما يشكل خطرا على الثقافات الوطنية للدول النامية ، خاصة ان البث التليفزيونى المباشر عبر الاقمار الصناعية سيتيح فرصا واسعة لانتشار لغات الدول الصناعية المتقدمة وقد يحول بعضها الى لغات عالمية على حساب الاقليات اللغوية فى العالم الثالث .

ومنذ فترة مبكرة حذر رينيه ماهى Rene Mahea المدير السابق لليونسكو من خطورة البث المباشر لبرامج التليفزيون عبر الأقمار الصناعية . وقال أن من شأن هذا البث أن يفرض رؤية واحدة بعينها للمعمورة على حساب حرية الانسان وثراء روحه التى طالما أسهمت فى نمو حضارتنا .

وفيما بعد أكد أولف هولتون Olof Hulton خبير الاعلام باليونسكو أن وجود الاقمار الصناعية لم يغير من نظام تدفق البرامج التليفزيونية بين الدول المتقدمة والدول النامية ، بدليل أن أكثر من ٩٠٪ من الأخبار التى تبثها شبكة الانتلسات والانترسبوتنك تأتى من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والدول الأوربية .

فإذا كانت الاقمار الصناعية قد لعبت دورا ، فإنها قد عززت وضع عدم التكافؤ فى التبادل التليفزيونى الدولى بين الدول المتقدمة والدول النامية ، وقد أثارت هذه الاخطار اهتمام الأمم المتحدة والاتحاد الدولى للمواصلات السلكية واللاسلكية ومنظمة اليونسكو والحكومات وهيئات الاذاعة والتليفزيون الاقليمية والدولية ، فقامت بمناقشة الموضوع بهدف إرساء مبادىء أساسية والوصول الى اتفاقيات دولية تسمح بالاستفادة العادلة من بث البرامج التليفزيونية عبر الاقمار الصناعية وتسخيرها فى خدمة السريان الحر للافكار والتوسع فى التعليم وتنمية التفاهم والتبادل بين الشعوب فى إطار الاحترام المتبادل لسياسة الدول والتنوع فى الثقافات الوطنية .

ولا يسعنا إلا الاعتراف بأن كافة المحاولات الدولية لم تسفر عن شىء جدى حتى الآن لتصارع المصالح ، ولأن الدول الصناعية المتقدمة هى الأعلى صوتا والاقوى نفوذا والأكثر تأثيرا . . !

ولا مفر لنا من أن نتساءل :

لقد فشل المجتمع الدولى فى استخدام الراديو الدولى كأداة للسلام والتفاهم والتعاون بين الشعوب ، فقد ظهر الراديو مع بزوغ نجم النازية والفاشية فاستخدم أداة للدعاية والحرب النفسية طوال الحرب العالمية الثانية ، وعندما انتهت الحرب الساخنة تحول إلى أداة فى الحرب الباردة بين المعسكرين الغربى والشرقى .

ترى هل يكون للتليفزيون الدولى مصير أفضل خاصة أن البث المباشر لبرامج التليفزيون عبر الاقمار الصناعية يعم العالم مع بشائر زوال الحرب الباردة وبداية التفاهم بين القطبين الدوليين ؟

سؤال سوف تجيب عليه السنوات القليلة القادمة .

الهوامش

(١) ماكلوهن . مارشال : كيف نفهم وسائل الاتصال ـ ترجمة خليل صابات (الهيئة العامة للكتاب) القاهرة ـ ١٩٦٨ م ـ ص ١٢ .

(٢) ماكبرايد . شون : أصوات متعددة وعالم واحد ، الاتصال والمجتمع اليوم وغدا (اليونسكو) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ١٩٨١ م ـ ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٣) Unesco: World Communication. (The Unesco Press). Paris. 1989. p.p. 12-

(٤) Barto. Paulu: Radio and Television, broadcasting on European Continent. (University of Minesnota Press) U.S.A. 1967. P.P 36 - 39.

(٥) Ibid. p.p. 37 - 39.

(٦) Kivikuru. Ullamaija and Varis Tapio. Approaches to International Communication. (Finish National Commission for Unesco) Helsinki, 1986.P.P.118 - 122.

(٧) Ibid. p.p. 121 - 213.

(٨) Evans. Harold: Media In the Soviet Union and Easter Europe. (Heinmann) London . 1987. p.p. 93 - 97.

(٩) بركات . سهير : الاذاعة الدولية (الكويت) ١٩٧٨ م ص ١٠٨ ـ ١١٢ .

(١٠) اليونسكو : وسائل الاتصال فى العالم (وحدة اليونسكو الاقليمية لوسائل الاتصال للبلاد العربية) القاهرة ـ ص ١٠ ـ ١٢ .

(١١) المصدر السابق ـ ص ٧١ ، ٧٨ ، ٧٩ .

(١٢) ماكبرايد . شون : أصوات متعددة وعالم واحد ـ ص ٢٣٧ .

(١٣) مانكيكار . د . ر . : التدفق الحر من جانب واحد (اليونسكو) ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(١٤) Smith. Williams: Television In America. (Hasting - House). New York. 1989. p.p. 117 - 122.

(١٥) Ibid. p.p. 232 - 237

(١٦) Thomson. Foundation: International Communication. London. 1988. p.p. 237 - 317.

(١٧) Ibid. p.p. 312 - 317

(١٨) Ibid. p.p. 342 - 346

(١٩) Chalkley. Alan: Radio and Television in Asia. (Heinmann). London. p.p. 92 - 97.

(٢٠) اليونسكو : وسائل الاتصال فى العالم ـ ص ٨٣ .

(٢١) مانكيكار . د . ر . : التدفق الحر من جانب واحد ـ ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٢٢) Chalk Alan: Radio and Television in Asia. p.p. 127 - 132.

(٢٣) اليونسكو : وسائل الاتصال فى العالم ـ ص ٨٣ .

(٢٤) مانكيكار . د . ر . : التدفق الحر من جانب واحد ـ ص ٨٣ .

(٢٥) المصدر السابق : ص ٤٨ .

(٢٦) المصدر السابق : ٨٦ .

(٢٧) ماكبرايد . شون : أصوات متعددة وعالم واحد ـ ص ٣٦٣ .

(٢٨) Binachare, Robert: Congress and the News Media. (Hastings House). New York. 1974. p.p. 13 - 17.

(٢٩) Ibid: p.p. 22 - 26.

(٣٠) مانكيكار . د . ر . : التدفق الحر من جانب واحد - ص ١٣٣ .

(٣١) Santoro: Getting the Message Across. (Unesco). 1980. p.p.62-65.

(٣٢) Heill. Faster: Communication in History. (The Macmillan Company). New york. 1978. p.p. 73-84.

(٣٣) Fang. Irving. E: Television News. (A Communication Arts Book Hasting House Publishers). New York. 1979. p.p. 27-33.